



يا لله ما لنا غيرك يا لله.. تهتف حناجر السوريين، مبتهلةً للقوة الإلهية كآخر ملجأ لهم، في حربهم الوجودية ضدّ نظامٍ ديكاتوريٍ ببربرٍ من جهة، وضدّ منظومة الأخلاق النفعية التي تسودُ العالم من جهة ثانية، شديدة التمركز حول المصلحة قيميةٍ وحيدةٍ، ترسّم من خلال دلالاتها وتجلياتها حدود وإمكانيات التدخل والمساعدة الدولية.

اشتعلت الثورة السورية منذ عام تقريباً، مدفوعة بموجة ثوريةٍ تحرريةٍ ألهبت المنطقة العربية، انطلاقاً من لهبِ أضاء جسدًا بشريًا مكتوياً بنار القهر ضدّ الذلِ والإهانة المتمعمدين للحياة في صورة الذات الإنسانية، المسماة اعتباً "بوعزيزي"، وامتدَ الحريق إلى المقهورين والمظلومين على سطح الكوكب الأزرق شديد الفراوة في الكون، فثاروا ضدّ الطغيان، ضدّ تجريدهم من حقوقهم في الوجود الكريم، وأسقطوا أنظمةً قامت فوقهم وضدّهم عشرات السنين، فأبْتَ خلالها على سرقتهم وامتصاص النبض من عروقهم، والمتاجرة بهم كرقيقٍ وعبيدٍ. فسقط نظام ابن علي التونسي من زخم وقوة المفاجئة تقريباً بالكامل، وتداعى نظام مبارك المصري، وضُحِّي برئيسه بعد أن تلقى ضرباتٍ شديدةٍ، أحرز خلالها المنتفضون حقوقاً منسيةً للبشر ومازالوا منتفضين حتى استردادها، رغم استعادة تحالف العسكر رجال الأعمال لأنفسهم. وذهب الديكتاتور الليبي معمر القذافي كراكوز العرب ومُضحكهم هو ونظامه أدراج الريح في الصحراء، مع استعادة النظام العالمي لزمام المبادرة، من خلال توظيف الحرب لإسقاطه، بما يترتب عليه من خروجٍ من الباب ودخولٍ من النافذة للقوى العظمى. ثم كانت اليمن تجربةً جديدةً أديرت فيها المعركة مع الشعب التائر بمناوراتٍ ودهاءٍ شديدين، كدهاءٍ من خرج من ذلك اللهب العربي بحرق علي عبد الله صالح الجسيمة دون أن يموت، مع إبقاء النظام اليمني تقريباً مثلما كان، ضمن جراحاتٍ تجميليةٍ لجسد الرئيس المحروق ولنظامه. بنفس الفترة تقريباً اشتعلت النيران في معظم البلاد العربية، استدركها المغرب بتنازلاتٍ كبيرةٍ تمسُّ السلطة السياسية، والخليج بتنازلاتٍ ماديةٍ تمسُّ الثروة، إلا سورياً فكانت استثناءً.

الاستثناء السوري: ألهبت الثورات مخيلة الشعب السوري الرازح تحت ثقل سلطة الأسد ونظامه الأمني العسكري المتورم، الذي يحكم من خلال استدامة الفقر والفساد، منذ عشرات السنين، بني خلالها شبكة من العلاقات والمصالح تميّزت بها الديكتاتوريات التي عاشت بعد الحرب العالمية الثانية في دهاليز الحرب الباردة، وصار للسلطة السورية موقعًا ومكانةً في

خريطة العالم، وإن تأثرت قليلاً بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية، فتراجعـت تكتيـكاً وحاربتـ في الكويت ضدـ العراق الشـقيق، مع التـحالف الدـولي ضمنـ الـزعـامة العـالـمـية الجديدة للـولاـيـات المـتحـدة الأمريكية المـنـفـرـة بـذـاتـها بـقـيـادـةـ العالمـ. ورأـوـغـتـ السـلـطـةـ السـورـيـةـ وـتـقـرـبـتـ عـلـنـاـ وـسـرـاـ منـ إـسـرـائـيلـ مـرـارـاـ، وـهـيـ العـدـوـ الـاسـتـراتـيـجيـ لـهـاـ، وـحـاـولـتـ اـمـتـصـاصـ تـلـكـ المـوـجـةـ المـدـوـيـةـ منـ تـغـيـرـ الـعـلـاقـاتـ الـدـولـيـةـ، إـلـاـ أـنـهـاـ كـانـتـ قـدـ جـذـرـتـ مـصـالـحـهـاـ فـيـ غـيرـ مـنـطـقـةـ مـنـ الـعـالـمـ الـعـرـبـيـ وـالـإـسـلـامـيـ، وـصـارـتـ لـاعـباـ رـئـيـسـياـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ، تـوـكـلـ إـلـيـهـ الـمـهـامـ الـقـدـرـةـ بـوـصـفـهـ لـاعـباـ جـلـفاـ شـدـيدـ الـقـسوـةـ وـالـغـباءـ.

إـذـ بـقـيـتـ السـلـطـةـ السـورـيـةـ فـيـ هـرـمـ الـدـوـلـةـ وـاـخـتـرـقـتـهـ نـزـوـلـاـ إـلـىـ ضـمـائـرـ النـاسـ وـأـفـئـدـهـمـ، وـكـانـتـ فـيـ الـخـارـجـ تـمـارـسـ الـمـناـوـرـةـ مـعـ الـجـمـيعـ فـيـ مـعـارـكـ الـجـمـيعـ ضـدـ الـجـمـيعـ، فـهـيـ مـعـ الـاـتـحـادـ السـوـفـيـتـيـ ضـدـ أـمـرـيـكاـ فـيـ فـلـسـطـينـ، وـمـعـ إـسـرـائـيلـ ضـدـ الـفـلـسـطـيـنـيـنـ فـيـ لـبـنـانـ، وـمـعـ أـمـرـيـكاـ ضـدـ الـعـرـاقـ فـيـ الـكـوـيـتـ، وـمـعـ السـعـودـيـةـ ضـدـ مـصـرـ بـعـدـ كـامـبـ دـيفـيدـ، وـمـعـ حـزـبـ الـعـمـالـ ضـدـ تـرـكـياـ، وـمـعـ إـيـرـانـ ضـدـ الـعـرـاقـ، وـمـعـ حـمـاسـ ضـدـ فـتـحـ، وـمـعـ الـقـوـاتـ ضـدـ الـمـقاـوـمـةـ الـلـبـنـانـيـةـ، وـمـعـ حـزـبـ اللـهـ ضـدـ إـسـرـائـيلـ، وـمـعـ إـيـرـانـ ضـدـ الـخـلـيجـ، وـمـعـ الـجـمـيعـ ضـدـ شـعـبـهـ الـشـعـبـ الـسـوـرـيـ، إـذـ أـنـهـاـ فـيـ مـرـحـلـةـ الـأـسـدـ الـأـبـ قـامـتـ بـتـعـرـيـةـ الـمـجـتمـعـ الـسـوـرـيـ، وـنـهـيـهـ وـإـفـقـارـهـ عـبـرـ الـدـوـلـةـ الـتـيـ كـانـتـ الـمـشـغـلـ الـأـكـبـرـ لـلـسـوـرـيـنـ وـرـبـ عـلـمـهـ، فـيـ مـاـ يـسـمـيـ رـأـسـمـالـيـةـ الـدـوـلـةـ، وـكـمـمـتـ الـأـفـواـهـ وـحـظـرـتـ الـسـيـاسـةـ وـالـأـحزـابـ، وـأـغـلـقـتـ مـيـدانـ الـعـمـلـ الـعـامـ أـمـامـ النـاسـ، وـاستـولـتـ عـلـىـ النـقـابـاتـ وـالـجـيشـ، وـاعـتـقـلـتـ الـمـعـارـضـيـنـ وـعـذـبـتـهـمـ وـقـتـلـتـهـمـ، وـدـمـرـتـ مـدـنـاـ عـلـىـ سـكـانـهـاـ، فـيـ حـرـبـهاـ الـمـفـتوـحةـ ضـدـ الـشـعـبـ، فـسـادـتـ وـعـاثـتـ فـسـادـاـ. فـيـ عـهـدـ الـأـسـدـ الـابـنـ اـسـتـمـرـ الـنـهـجـ نـفـسـهـ، وـلـكـنـ مـعـ إـيـصالـ النـاسـ إـلـىـ حـدـ الـجـوـعـ وـمـاـ بـعـدـ، ضـمـنـ سـيـاسـةـ تـبـعـ نـصـائـنـ بـنـكـ الـنـقـدـ عـلـىـ هـوـاـهـاـ مـنـ دـوـنـ اـتـفـاقـ مـكـتـوبـ، أـيـ أـنـهـاـ تـنـفـذـ الشـطـرـ الـلـيـبـرـالـيـ فـيـ الـاـقـتـصـادـ، مـنـ خـلـالـ بـيـعـ الـقـطـاعـ الـعـامـ، وـإـلـغـاءـ دـورـ الـدـوـلـةـ وـرـعـاـيـتهاـ فـيـ مـيـادـيـنـ تـنـمـيـةـ شـدـيـدـةـ الـأـهـمـيـةـ وـالـحـسـاسـيـةـ لـلـشـعـبـ كـالـزـرـاعـةـ وـالـصـنـاعـةـ، لـصـالـحـ الـتـرـكـيزـ وـدـعـمـ الـنـشـاطـاتـ الـرـيـاعـيـةـ كـالـبـنـوـكـ وـالـاسـتـثـمـارـاتـ الـعـقـارـيـةـ، كـلـ ذـلـكـ دـوـنـ إـعـادـةـ هـيـكـلـةـ مـؤـسـسـاتـ الـدـوـلـةـ وـإـدـخـالـ الضـوءـ إـلـيـهـ، عـبـرـ السـماـحـ لـمـنظـمـاتـ غـيرـ حـكـومـيـةـ أـوـ أـحـزـابـ أـوـ وـسـائـلـ إـلـاعـمـ بـالـعـمـلـ، أـيـ إـبـقاءـ مـخـالـبـ الـدـوـلـةـ الـأـمـنـيـةـ دـوـنـ تـشـذـيبـ، مـعـ التـجـوـيـعـ.

تـشـابـكـتـ مـصـالـحـ الـدـوـلـةـ وـالـأـنـظـمـةـ وـشـهـدـتـ تـعـقـيـدـاتـ جـديـةـ مـعـ تـرـابـطـ الـأـسـوـاقـ وـاـنـفـاتـهـاـ، وـكـانـ لـلـسـلـطـةـ السـوـرـيـةـ فـيـ السـنـوـاتـ الـعـشـرـ الـأـخـيـرـةـ دـوـرـاـ مـهـمـاـ فـيـ فـتـحـ مـجاـلـاتـهـ الـحـيـوـيـةـ أـمـامـ أـسـوـاقـ الـعـالـمـ، فـيـ مـسـعـيـ لـإـرـضـاءـ الـكـثـيـرـيـنـ بـعـدـ اـغـتـيـالـ الـحـرـيريـ وـخـرـوجـهـ الـمـخـزـيـ منـ لـبـنـانـ، وـتـمـ ذـلـكـ عـلـىـ حـسـابـ السـوقـ الـمـلـحـلـيـ، فـتـلـاشـتـ الـزـرـاعـةـ وـالـصـنـاعـةـ السـوـرـيـتـانـ أـمـامـ الـتـجـارـةـ وـالـبـضـائـعـ الـمـسـتـورـدـةـ، وـتـكـدـسـ السـوـرـيـونـ فـيـ المـدـنـ بـعـدـ إـمـحالـ الـرـيفـ، وـجـاءـوـاـ جـمـاعـةـ، بـعـدـ أـنـ غـرـقـتـ سـوـرـيـاـ بـالـعـاطـلـيـنـ عـنـ الـعـلـمـ إـثـرـ الـأـزـمـةـ الـعـالـمـيـةـ الـتـيـ طـالـتـ الـخـلـيجـ الـعـرـبـيـ فـتـوـقـفـ السـفـرـ بـرـلـكـ السـوـرـيـ إـلـيـهـ. وـتـكـدـسـ أـسـبـابـ الـثـورـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ وـتـرـاكـمـتـ وـاحـتـقـنـتـ، وـأـذـكـتـهـاـ دـائـمـاـ أـجـهـزةـ الـأـمـنـ الـسـوـرـيـةـ كـوـسـائـلـ إـذـلـاـلـ وـإـهـانـةـ وـتـسـلـطـ عـلـىـ النـاسـ بـفـرـضـ الـأـتـاوـاتـ عـلـىـ أـعـمـالـهـ وـحـبـوـاتـهـ، وـحـرـمانـهـمـ مـنـ أـدـنـىـ حـقـوقـ إـلـيـانـ الـمـتـاحـةـ عـبـرـ شـبـكـاتـ الـتـلـفـزـةـ فـيـ غـيرـ مـكـانـ قـرـيبـ مـنـ الـعـالـمـ.

بـدـأـتـ الـثـورـةـ فـيـ مـنـتـصـفـ آـذـارـ 2011ـ مـلـمـيـةـ وـعـفـوـيـةـ وـامـتدـتـ خـلـالـ أـيـامـ لـتـغـطيـ كـامـلـ الـتـرـابـ الـوطـنـيـ، وـفـتـحـتـ السـلـطـةـ كـلـ أـبـوابـ الـجـيـمـ أـمـامـ الـثـوارـ، بـمـعـدـلاتـ قـتـلـ وـاعـتـقـالـ وـتـعـذـيبـ فـاقـتـ حدـودـ التـصـوـرـ مـنـ الـبـرـبـرـيـةـ وـالـهـمـجـيـةـ، وـهـيـ تـفـعـلـ ذـلـكـ عـلـنـاـ مـسـتـعـيـنـ بـحـلـافـائـهـ الـرـوـسـ وـالـإـبـرـانـيـنـ، الـذـيـنـ لـهـمـ أـوـضـاعـ مـمـاثـلـةـ فـيـ الـقـمـعـ وـالـاـسـتـهـانـةـ بـحـقـوقـ إـلـيـانـ، لـكـنـهـمـ الـيـوـمـ بـدـؤـواـ بـخـوضـونـ الـحـرـبـ ضـدـ الـشـعـبـ الـسـوـرـيـ عـلـىـ الـأـرـضـ، حـيـثـ حـشـرـ الدـبـ الـرـوـسـيـ نـفـسـهـ فـيـ مـكـانـ ضـيـقـ جـداـ فـيـماـ يـعـقـدـ أـنـهـ لأـغـرـاضـ اـسـتـعـراـضـيـةـ اـنـتـخـابـيـةـ، خـلـفـهـ اـنـسـحـابـ أـمـرـيـكـيـ فـرـنـسـيـ مـنـ السـاـحةـ لـأـغـرـاضـ اـنـتـخـابـيـةـ أـيـضاـ، إـذـ أـنـ الـفـرـنـسـيـنـ وـالـأـمـرـيـكـيـنـ يـلـجـؤـونـ إـلـىـ الدـاخـلـ لـإـدـارـةـ عـرـوـضـ الـاـنـتـخـابـاتـ، فـيـ حـيـنـ أـنـ الـرـوـسـ وـبـعـدـ إـفـلـاسـهـمـ الـدـاخـلـيـ وـتـرـشـحـ بوـتـيـنـ لـلـمـرـةـ الـرـابـعـةـ لـاـ يـجـدـ أـمـامـهـ إـلـاـ عـرـضـ الـخـارـجـيـ لـكـسـبـ شـارـعـ بـدـأـ يـظـهـرـ تـمـلـمـلـهـ الـعـلـنـيـ إـثـرـ مـظـاهـرـاتـ عـمـتـ رـوـسـيـاـ اـحـتـاجـاـ عـلـىـ تـرـويـرـ نـتـائـجـ الـاـنـتـخـابـاتـ الـتـشـرـيعـيـةـ هـنـاكـ مـنـذـ شـهـرـيـنـ مـاـ يـنـذـرـ بـوـصـولـ الـمـدـ الـعـرـبـيـ إـلـيـهـنـاكـ. فـقـامـ بوـتـيـنـ باـسـتـخـدـامـ حـقـ النـقـضـ مـرـتـيـنـ بـعـدـ إـخـرـاجـ حـامـلـةـ طـائـرـاتـهـ الـوـحـيـدـةـ إـلـيـهـ الـمـيـاهـ الـإـقـلـيمـيـةـ السـوـرـيـةـ لـتـرـسـوـ عـلـىـ شـاطـئـ طـرـطـوسـ، كـمـاـ فـعـلـتـ مـنـ

قبله البوارج العسكرية الإيرانية، والتي بدورها تقاتل على الأرض من خلال مقاتلين بدأت تظهر صور المعتقلين منهم لدى الثوار السوريين.

هكذا أعلنت روسيا وإيران والصين علينا الحرب على الشعب السوري، في معركته لإسقاط نظام حكم متكبر شديد الطغيان، بفرض إقامة دولة تحترمهم كبشر، وتحقق لهم جزءاً من أحلامهم، وترك الغرب الشعب السوري الأعزل في معركته بحجة فبتو روسيا تارةً، ولأسباب انتخابية تارةً أخرى، وبسبب من أزمة مالية عالمية. لكن ما يجري فعلاً هو اتفاق ضمني عالمي على وقف الربيع العربي، ومنعه من التسلل إلى شعوبٍ أخرى، وتهديد أنظمةٍ تتشابه دائمًا حين يتعلق الأمر بنهب الشعوب وسرقة أحلامهم، وإبقاءهم دوماً في حظائر تمنعهم من رؤية الحياة الحقيقية، خارج إطار السيطرة الرأسمالية. وليس بعيداً عن الذكرة، كيف تركت راوندا تقاتل حتى سقطت مصرجاً بدمها مع مليون قتيل في منتصف تسعينيات القرن الماضي، ولا كيف ترك الفلسطينيون يموتون أمام عدسات كاميرات العالم وضميره الحي.

كم يبدو اليوم واضحاً وجلياً إمكانية تفاعل شعوب الأرض لكسر قيودها، وإلغاء حالة الوهم التي تحكمهم، في صورة دول وأحلافٍ تتبادل فيها أطقمٍ إداريةٍ موقع السلطة والثروة. كم يبدو السوريوناليوم عبر رقصهم وغنائهم في تشيع شهدائهم الذين قضوا تحت وطأة آلة الموت السلطوية أقرب إلى الفطرة الإنسانية من شعوب أخرى تحسدهم بخوف وترقب، كم يبدو السورياليوم مقاتلاً أسطورياً في ملحمة يدفع فيها من دمه كي لا تسقط الإنسانية.

المصدر: صباح سوريا

المصادر: